نظرة في حياة ماركيز وأعماله

د.فؤاد عبد المطلب

جامعة جرش - الأردن

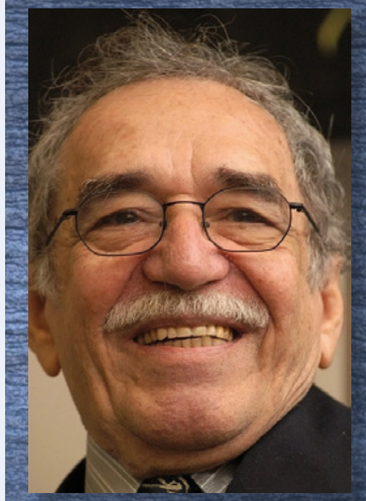

غابرييل غارسيا ماركيز

ولد غابرييل غارسيا ماركيز في 6 آذار عام 1928 في قرية استوائية تدعى "أركاتاكا" الواقعة على ساحل كولومبيا الكاريبي، في بيت الكولونيل ماركيز الميسور الحال، والجدّ الذي تزعرع في كنفه غابرييل. لم تكن القرية تدرك أنّ هذا المولود سيكون الكاتب الناجح الذي سيعيد كتابة تاريخها المدفون تحت الحجارة البيضاء، وأنها ستصبح ذائعة الصيت بفضل نثره الأدبي. وفي فناء ذلك البيت، استمع غابرييل منذ طفولته إلى الحكايات والقصص الشعبية التي كانت ترويها له جدته، فساهم ذلك في صقل موهبته منذ البداية، ثم انعكس في أسلوب السرد في كتاباته القصصيّة والروائيّة، ذلك الأسلوب الذي لا يعرف التوقف.

التحق ماركيز بالجامعة الوطنية في بوغوتا عاصمة كولومبيا، وأنهى دراسة الحقوق، ولكنه لم يزاول اختصاصه، فقد كان مولعاً منذ البداية بعالم السينما والأدب والصحافة. وفي الثامنة عشرة من عمره نشر أول قصّة قصيرة له في جريدة "اسبكتادور" اليساريّة. وفي تلك الحقبة كان يقرأ بشغف أعمال فرانز كافكا، وانضم إلى هيئة تحرير اسبكتادور، وبدأ يعيش من كسب يده. ثم أرسلته الجريدة عام 1954 إلى إيطاليا لينقل الانطباعات المباشرة عن موت البابا بيوس الثاني عشر، إذ انتشر اعتقاد بقرب موته. بيد أنّ الموت تأخر سنوات، فبعث ماركيز بتعليقات حول موضوعات أخرى ليؤخر عودته إلى كولومبيا.

ولكنّ أوروبا أعجبت ماركيز بحيويتها وسحرها وحضارتها. وبعد أن أغلق النظام الديكتاتوري في كولومبيا جريدة "اسبكتادور" انقطع المورد الذي كان يؤمّن له حياة الكفاف في أوروبا. فصرف كل ما ادّخر عاكفاً على كتابة روايته الثانية "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه"، وأخذ بعدها يتنقل بين ربوع أوروبا، فتعرّف شعوب أوروبا الشرقيّة، وحاور شخصّيات عديدة متباينة في الفكر والطباع. وسافر إلى فرنسا التي عجز عن فهم لغتها، فعاش فيها حياة شقاء وكفاف اضطر فيها إلى جمع الزجاجات الفارغة وبيعها. وقد ظل ثلاث سنوات يعيش كما قال من المعجزة اليومية بينما تنمو في أعماقه مرارة هائلة. وكان يراقب المدن الفرنسية عن كثب، ويقوم بتخزين صور وذكريات ومعارف كان لها لونها وخصوصيّتها. وبعدها غادر إلى برشلونة، فأمضى فيها عشر سنوات، كتب فيها روايته "خريف البطريرك". ومما يجدر ذكره هنا أن أحد الصحفيين سأله: ما الذي جاء بك إلى إسبانيا في عهد الديكتاتور فرانكو هارباً من ديكتاتوريات أمريكا اللاتينية؟ فأجاب: "إن السبب الأهم استخدامي لفرانكو كنموذج لخلق شخصية الديكتاتور في روايتي "خريف البطريرك". والتحق ماركيز بمعهد لدراسة إدارة الإنتاج السينمائي، مما أتاح له أن يطّلع على النشاط السينمائي الأوروبيّ.

تزوج غابرييل عام 1958 من "مرسيدس" التي ظلت تنتظر عودته أربعة أعوام. وعمل في الصحافة في كاراكاس، حيث أنهى جزءاً من رواية "جنازة الأم العظيمة"، واختاره كاسترو بعد دخوله هافانا، لينشئ مكتباً لوكالة الأنباء الكوبية الجديدة "برانسالاتينا" في بوغوتا، وليكون مديرها. وقد مثّل "برانسالاتينا" في الاجتماع الخامس عشر لجمعية الأمم المتحدة، ولكنه استقال بعدئذ ليتفرّغ لمؤلفاته الأدبيّة والفنيّة. وفي عام 1960 حين استدعته إدارة الوكالة إلى هافانا للتشاور، تعرّف "تشي غيفارا" فقامت بينهما صداقة حميمة، نمّتها وقوّتها الأفكار المشتركة بينهما؛ فقد كان غابرييل ماركيز مرتبطاً معنوياً بقضية الشباب الأمريكيّ اللاتينيّ الذي يؤمن بالحرية والمساواة، ويرفض الطغيان، ويؤيد نضال فيدل كاسترو وأرنستو تشي غيفارا إلى أبعد الحدود.

وصل إلى المكسيك عام 1961 وليس في جيبه إلا مئة دولار، ولكنّ اليسار المكسيكي وقف إلى جانبه، وساعده ريثما تتحسّن أوضاعه، واختار له سكناً في إحدى الضواحي الجميلة. وفي ذلك السكن، أنهى بعض رواياته، ودفع روايته "الأزمنة الصعبة" إلى المطبعة، ونال عدة جوائز أدبية، واخترت قصته "لا لصوص في هذه المدينة" موضوعاً لفيلم عُرض في مهرجان لوكارنو عام 1965. فانصرف غابرييل إلى كتابة السيناريوهات لأفلام الموجة الحديثة، ولكنّه لم يتوقف أبداً عن استخدام الماضي في كتابة الرواية.

ومما ينبغي الإشارة إليه، أن "ماكوندو" القرية أو المدينة التي تقع في طرف من أطراف كولومبيا المنسيّة هي قاسم مشترك في رواياته، فهي المكان الذي تجري فيه معظم الأحداث في رواياته حتى عام 1967، عام صدور روايته "مئة عام من العزلة" التي تُعدّ قمّة أعماله الروائية، ومنها بلغ القمّة في تجسيده الحياة في "ماكوندو". لقد انسحب ظل "ماكوندو" على أعمال ماركيز الروائيّة والقصصيّة. فما "ماكوندو" في الواقع العياني؟ أهي قريته "أراكاتاكا"؟ أهي كولومبيا؟ أهي أمريكا اللاتينية؟ فقد تضاربت الآراء والنظريات حول جوهر هذا المكان، الذي تتحرك فيه الشخصيات، وتتعاقب أو تتزامن الأحداث بطريقة تصبح فيه مسرحاً للحياة الفعلية.

فهل "ماكوندو" كيان موجود حقيقة أم مادة روائية من ابتكار ماركيز، نسج خيوطها من مخّيلته الإبداعيّة؟

يقول أحد نقاد ماركيز: "ماكوندو هي كلّ مكان، ولا مكان... ماكوندو مثل أيّ سراب، تحيا في عالم من الكوابيس. هي وهمٌ وهي حقيقة. ماكوندو ليست مكاناً، بقدر ما هي حالةٌ فكرية. وهل يمكن لقرية أو مدينة أن تصبح حالةً فكرية؟ إنّ لم يكن كذلك، فلماذا تطالعنا ماكوندو في آثار ماركيز كلّها؟ ولماذا تتمتع بهذه الصفة الآسرة والديمومة المهيمنة على أفكار ماركيز، حتى ليختلط علينا الأمر بين أن تكون مكاناً جغرافياً أو فكرة واقعية أو سراباً وهمياً.

وعلى الرغم من إحساسنا بسرابيّة ماكوندو، فإننا نجدها ضاربة في الواقع الاجتماعي ومتجذرة فيه، في كلّ شخص، وكلّ شجرة، وكلّ بيت، وكلّ حبة تراب، حتى في الجو والهواء نجد صورة لها تنعكس على نحو ما. إنّ ما يسترعي انتباهنا كقرّاء أنّ إنسان ماكوندو، هو صورة حيّة عن إنسان أمريكا اللاتينية كلّها، في همومه وحيويته، نجاحه وفشله، مآسيه وأفراحه، انهزامه وانتصاره، إيمانه وخرافاته، ضعف إرادته وتحدّيه للخطر.

حقاً لم تُولد "ماكوندو" من الفراغ، فهي اسم لمزرعة تجاور قريته الصغيرة "أركاتاكا" والشيء الذي ابتدعه ماركيز أنّه أعاد صياغتها، فجعلها قرية مأهولة بالسكان، ففتح بذلك باباً واسعاً للكتابة والإبداع، فمزج الواقع بالأسطورة، والمحتمل بالسحريّ، والأزليّ بالتاريخي، والديني بالدنيوي. فقد كانت "ماكوندو" قرية مؤلفّة من عشرين منزلاً من اللبن والقصب. بُنيت على ضفة نهر، والأشياء فيها بلا أسماء، وتعود إلى ما قبل التاريخ. ثم أصبحت القرية دلالة مميزة من حيث مكان روايات ماركيز وزمانه وقصصه. وتتجلى هذه الصورة على نحو واضح في رواية "مئة عام من العزلة"، التي بدأ ماركيز كتابتها، وهو في السابعة عشرة من عمره، ولكنها لم تكتمل إلا عام 1967.

كتب ماركيز خلال ذلك الكثير من القصص والروايات، وظلتّ هذه الرواية في أعماقه، تظهر حيناً، وتختفي حيناً آخر، تغتني بالتجارب والأفكار، وترفض أن تولد إلا مكتملة.

وحين وُلدت كانت تحمل في طياتها الواقع الحقيقي، ملخصةً تجارب ماركيز الفنيّة والفكريّة، ومرتقية به إلى مصافّ كتّاب الرواية العالميين. ومع ذلك، كان لإلتزام ماركيز بقضايا مجتمعه، والإنسان في العالم كلهّ، هو القضية الأساسية في كلّ ما كتب، وإن استخدم في التعبير عنها أساليب فنيّة جعلته متميزاً بين كتّاب العصر الحديث.

عندما أُعلن في وقت متأخر فوز غابرييل ماركيز بجائزة نوبل للآداب لعام 1982، كانت أعماله قد تُرجمت إلى لغات عديدة، وكان عدد كبير من المهتمين العرب قد قرؤوا روايته العظيمة "مئة عام من العزلة" التي عُدّت أهم رواية صدرت باللغة الإسبانية بعد رواية سرفانتس "دون كيشوت".

ولقد تميّز ماركيز بوفرة نشاطه في كتابات السيناريو، والتحقيقات الصحفية السياسية والموضوعات الشاعرية الطابع، فمنذ سنوات، وهو ينشر في صحف أمريكية لاتينية وإسبانية مقالاً إسبوعياً يشدّ القرّاء بأفكاره ورشاقة أسلوبه وجاذبيته. كما كتب ملاحظات نقديّة حول الاتجاهات الأدبيّة في القارة، وهي بمثابة حوارات أدبيّة وفكريّة بين النقاد والأدباء، بالإضافة إلى القصص القصيرة والروايات، التي سنتطرق إلى بعض ما يهمّنا منها. فقد صدرت قصتاه القصيرتان "أجمل رجل غريق في العالم" و "العجوز العظيم الأجنحة" عام 1968، كحكايات للأطفال، وفي العام نفسه، كتب القصتين "الساحر الطيب، صانع المعجزات"و "الرحلة الأخيرة للسفينة الشبح"، أما قصة "نابو" فإنها صدرت عام 1951 وتلتها "مناجاة إيزابيل وهي تراقب السماء تمطر في ماكوندو" عام 1955. أما أول رواية تصدر له فقد كانت بعنوان "عاصفة الأوراق" عام 1955، وهي تُعدّ من الروايات القصيرة (النوفوليتي).

تعالج أحداث الرواية الأولى قصة زراعة الموز ودور الشركات الاحتكارية، وهو موضوع يعود إلى الظهور في رواية "مئة عام من العزلة" فيما بعد. يجعل ماركيز من "ماكوندو" في رواية "عاصفة الأوراق"، مكاناً يتمتّع بوجود خاص، رغم شبهها بمكان ولادته، ليحقّق له غرضه الأدبيّ؛ ففي هذه الرواية، يجد المؤلف مجالاً لإظهار براعته الأدبية، ويحاول معرفة العلاقة بين حياة سكان مكان ما وسلوكهم وبين النظام الاجتماعي والسياسي السائد، وهذا ما يظهر أيضاً في أحداث قصصه القصيرة المغمورة. ويستخدم ماركيز في رواية "عاصفة الأوراق" المونولوجات الفوكنريّة الثلاثة، حيث البطل مدينة صغيرة بعيدة ومنعزلة، منقسمة بالخلافات والتناقضات القديمة، أرض جديرة بالتصديق، بكل ما فيها من غرائب؛ كما أن ماركيز يوغل في تصوير شخصية البطل المنعزلة بإعجاب شديد، والمتعجرفة، والتي يأكلها الكبرياء، التي تعيش في حالة تردّد وارتياب من مواجهة المجتمع الذي يحيط بها. كما أن الطبيب الذي أعدّت جنازته في بداية الرواية يظل صورة غامضة ومبهمة، إنه ذلك الغريب الذي يصل إلى مدينة صغيرة، ماكوندو، كي يزاول مهنة التطبيب، وفجأة يختفي زبائنه مع وصول شركة الموز مع الأطباء الذين كانوا على ما يبدو أبرع منه. ويقفل الطبيب الأبواب في عزلة إرادية، وعندما تغادر شركة الموز المدينة، وتنشب الحرب الأهلية يرفض الاعتناء بالجرحى ومعالجة المرضى، ويرفض حتى الاعتناء بالمرأة الهندية التي كانت على علاقة عاطفية غير شرعية معه وهي تحمل منه، والتي تختفي فجأة في ظروف غامضة، ويحمّل مسؤولية اختفائها أو قتلها. ويعيش الطبيب والمدينة حالة من الحقد المتبادل فترة طويلة من الزمن، ويركز ماركيز على سردية شخصية الكولونيل الذي يعده بدفن لائق حين وفاته متحديّاً البلدة جميعها في إنجاز وعده الذي قطعه للطبيب.

يركّز غابرييل ماركيز اهتمامه الرئيس في المشكلة الحقيقية، حول الشخصية التي تعيش ضمن مجتمع جائر، ويتجلّى هذا الموضوع دائماً في قصصه القصيرة. ويحاول ماركيز بصراحة وجرأة النفاذ إلى أسرار ماكوندو العميقة، فيطرح ويحلّل ويكشف عن المعتقدات والأفكار التي تخالج سكانها حول أنفسهم وحول الآخرين، من خلال تقديم صورة إنسانية واجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية للبلدة، دون إعطاء إجابات أو حلول نهائية حول القضايا التي يتناولها.

إن عالم غابرييل غارسيا ماركيز مفعم بالحياة النشطة النابضة في البشر والأبطال والبيوت والأشجار والزهور والبحار وشركات الموز والمعجزات والسحر والغرائب التي تقبلها جميعها برضى وقناعة. ففي قصة "أجمل رجل غريق في العالم" مثلاً يظهر فقر أهل القرية عندما يجسدون أحلامهم في جسد رجل غريق وجدوه على شاطىء قريتهم. فقد رأت فيه نساء القرية أجمل رجل في العالم، وأكثر الرجال فحولة ونبلاً وعظمة، فيتبارين في إعداد الملابس اللائقة لدفنه، وفي جمع الزهور لتزيين جثمانه، ولم يكن في بالهن أو بال القرية أن مصيره سينتهي بإلقائه في البحر. وفي اللحظة الحاسمة يحسون بالألم لأنهم سيعيدونه إلى الماء كشخص يتيم، فيختارون له أباً وأماً من أفضل الناس في القرية، وعمّات وأعماماً وأبناء عمومة، وبهذه الطريقة يغدو جميع سكان القرية أقارب. فالقرية كلها تقع في حب جثمان هذا الرجل الغريق. ولسوف تُخلّد القرية ذكراه بعد إلقاء "استيبان" في البحر، وستنكسر ظهورهم وهم يحفرون الأرض بحثاً عن عيون الماء وسط الصخور، ويزرعون الزهور على منحدرات الجبال، وبذلك يمكن للمسافرين على البواخر الكبيرة العابرة في السنين القادمة، أن يستيقظوا عند الفجر، فينسلّ عبير الحدائق إليهم وهم في عرض البحر، ولسوف يشير القبطان إلى القمم المزروعة بالورود وسط الأفق، ويقول في أربع عشرة لغة، انظروا هناك، حيث الرياح ساكنة وهادئة الآن، لأنها هاجعة تحت الأسرّة، هناك عالياً، حيث تسطع الشمس ببريقها الذهبيّ حتى إنّ أزهار عبّاد الشمس، لا تعرف إلى أي طريق تدير وجهها. نعم هناك عالياً، تلك قرية "أستيبان".

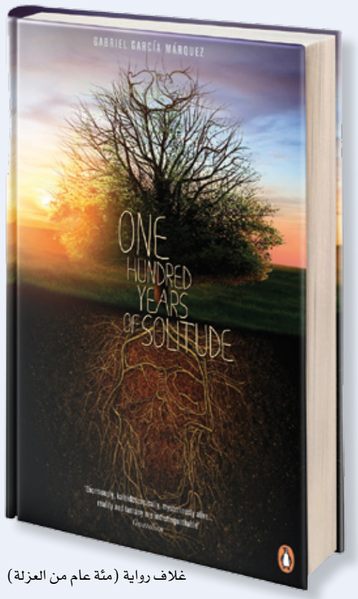

غلاف رواية (مئة عام من العزلة)

طاغور شاعر الهند الملهم

إبراهيم عبد الله الخويطر

كاتب ومفكر

روبندرونات طاغور

في 6 أيار/مايو 1861 ولد هذا الشاعر قي (كلتا) من أسرة عريقة في الوجاهة والمكانة العلمية والأدبية؛ فوالده مشهور في إقليم (البنجاب) بمكانته الدينية والاجتماعية، وفي 1875 وفاة والدته وهو في الخامسة عشرة وفي هذه السنة نشر بواكيره الشعرية في إحدى المجلات وحين قارب العشرين نشر أولى مجموعاته الشعرية بعنوان (أغاني الصباح) ثم اتبعها بـ (أغاني المساء)، وفي 1877 أرسله أبوه إلى إنجلترا لدراسة القانون فلم يوفق ولكنه عاد بحصيلة أخرى من التجارب والمعلومات الأدبية والثقافية وتزوج في(9 كانون الأول/ديسمبر من عام 1883)، وفي 1891 قام برحلة إلى أوربا (إنجلترا، فرنسا، إيطاليا)، وفي 1901 أسس مدرسة صارت فيما بعد جامعة. وفي عام 1902 توفيت زوجته، وفي عام 1904 توفيت ابنته، وفي 1905 توفي والده، وفي عام 1907 توفي ابنه الأكبر.

ومنذ عام 1909 توالت نشر أغانيه ومجموعاته الشعرية، وفي 1912 زار الولايات المتحدة والتقى بالشاعرية الكبيرين باوند، ويتس وأعجبا به وقاما بتعريف الغربيين به وقام طاغور بترجمة بعض أشعاره إلى الانجليزية وقد ترجم مجموعة (جتنجالي) إلى الانجليزية ونال عليها في عام 1914 جائزة نوبل وقد خصص ربع الجائزة لتطوير جامعته، وفي العام نفسه منحته جامعة كلكتا لقب الدكتوراه الفخرية.

وفي عام (1915) منحته الحكومة البريطانية لقب (سير) لكنه أعاده لها عام (1919) احتجاجاً بعد أن قامت بأعمال قمعية ضد الشعب البنجابي، وفي عام 1916 زار اليابان. وبعدها بعام زار أمريكا للمرة الثانية وألقى سلسلة من المحاضرات؛ كما انتخب في نفس السنة رئيساً للمؤتمر الوطني بـ(كلكتا).

في عام 1922 وما بعده زار أوروبا ومن بعدها الصين وماليزيا واليابان، وفي عام 1925 عين رئيساً للمؤتمر الفلسفي بالهند، وفي عام 1928 بدأ بممارسة الرسم واستمر في رحلاته إلى الغرب والشرق في عام زار العراق وإيران، في عام 1933 ألقى عصا الترحال إلا في بلده.

1940 في هذا العام آخر لقاء له مع غاندي، توفي عام 1941 قبل أن يشهد استقلال الهند وكذلك غاندي الذي اغتيل عام 1948 قبل الاستقلال بسنة، وكان الاستقلال عام (1949).

من أعماله الشعرية والمسرحية والقصصية

(جتنجالي)، (البستاني)، (جني الثمار)، (هدية العاشق)، (الهاوية)، (الأمل والتحدي).

ومن المسرحيات:

(الشلال المنبوذ)، و(وردة الربيع)، و(شيترا)، وله قصص قصيرة وروايات مثل: (البيت والعالم)، و(بنو ديني).

مختارات من شعره:

اليوم لم يختم بعد، والسوق التي على شاطئ النهر لا تزال
ولقد خفت أن يكون يومي قد تبدد، وآخر دراهمي قد ضاع
ولكن لا لا يا أخي إني مازلت أملك شيئاً لأن حظي لم يسلبني كل شيء

✺ ✺ ✺

الآن انتهى البيع والشراء
لقد جمعت حصيلتي من الطرفين
والآن حان وقت عودتي إلى البيت
ولكن، أيها الحارس أفتلطب ضريبتك؟
لا تخف يا أخي، إني مازلت أملك شيئاً،لأن حظي لم يسلبني كل شيء

✺ ✺ ✺

إن سكون ألريح ينذر بالعاصفة
وإن السحب المتجهمة في الغرب. لا تبشر بخير
والماء ساكن ينتظر الريح
أما أنا فأهرول لأعبر النهر قبل أن يدركني الليل
ولكن يا صاحب المعبر، أفتريد أن تطلب أجرك؟
أجل يا أخي، إني ما زلت أملك شيئاً، لأن حظي لم يسلبني كل شيء

✺ ✺ ✺

وفي ظلال الشجرة على جانب الطريق تربع شحاذ
واأسفاه إنه يحدق في وجهي، وفي عينيه رجاء وحياء !
إني في ظنه غني بما ربحت في يومي
أجل يا أخي، إني ما زلت أملك شيئاً، لأن حظي لم يسلبني كل شيء

✺ ✺ ✺

لقد اشتد ظلام الليل، وأقفر الطريق، وتألق الحباحب بين أوراق الشجر
من عساك تكون يا من تتبعني في خطوات متلصصة صامتة؟
أه، لقد عرفت إنك تريد أن تسرق مني كل أرباحي
لن أخيب ظنك !
إني مازلت أملك شيئاً لأن حظي لم يسلبني كل شيء
وصلت المنزل عند منتصف الليل بيدين فارغتين
وأنت لدى الباب تنتظرين في يقظة وصمت، وفي عينيك الرغبة
وكعصفورة وجلة طرت إلى صدري، يدفعك حب تواق
آه يا إلهي إن شيئاً كثيراً ما يزال باقياً معي لأن حظي لم يخدعني ويسلبني كل شيء

✺ ✺ ✺

(عتاب في الصباح)

ألقيت شباكي في البحر
واستخرجت من اللجة المظلمة
أشياء غريبة المنظر رائعة الجمال
بعضها يتألق كأنه ابتسامة
وبعضها يلمع كأنه دمعة
وبعضها وردي كأنه خدود عروس
وحين عدت إلى بيتي في نهاية المساء
حاملا غنيمتي
كانت حبيبتي تجلس في الحديقة
تنز في كسل بتلات زهرة
وفي تهيب واحتشام
وضعت تحت قدميها كل صيدي
فنظرت إليه في استخفاف وقالت:
ما هذه الأشياء الغريبة ؟
لست أدري ما نفعها ؟
فأحنيت رأسي في خجل وفكرت
"لم أصارع للحصول عليها
إنها عطايا ليست جديرة بك "
ولبثت طوال الليل
ألقيها واحدة واحدة
في الطريق
وفي الصباح جاء المسافرون
وجمعوها، وحملوها إلى بلدان بعيدة
(ديوان البستاني)

(الدين الزائف) من قصائد الأمل والتحدي

أولئك الذين يعانقون الوهم باسم الدين
يقتلون ويقتلون
فلا تفخر بدينك
إنه يوقد في خشوع مصباح العقل
ويقدم تمجيده لا إلى الكتب
ولكن لكل شيء طيب في الإنسان
إن الطائفي يلعن دينه
حين يقتل إنسانا من غير دينه
وهو لا يقوم السلوك على ضوء العقل
ويرفع في المعبد
العلم الملطخ بالدماء
ويعبد الشيطان في صورة الإله
كل هذا الذي تم عبر الأحقاب والعصور
مخجل. ووحشي
قد وجد ملاذه في معابدكم التي تحولت إلى سجون

صورة تعود لعام 1940 لشاعر الهند طاغور

كل ما يحرر الإنسان
يحولونه إلى قيود
وكل ما يوحده
يحولونه إلى سيوف
وكل ما يحمل الحب
من النبع الخالد
يحولونه إلى سجون
يحاولن اجتياز النهر
في سفينة مثقوبة
يا إلهي
دمر الدين الزائف
وأنقذ الأعمى
ولتهشم، ولتهشم
المعبد الملطخ بالدماء
ودع هزيم الرعد ينفذ إلى سجن الدين الزائف
واحمل إلى هذه الأرض التعسة
نور المعرفة
(من قصائد الأمل والحدي)